

# لامية الطغرائي

## قراءة في البنى الفكرية والأسلوبية

◆ أ.د. وليد السراقبي (\*)

المقدمة

سعى هذا البحث إلى مقارنة لامية الطغرائي من خلال مستويين:

١- المباني الفكرية

٢- المباني الأسلوبية

فعمد إلى إثبات النص، ثم تقسيمه إلى مقاطع بحسب البنى الفكرية التي تضمّنها كل مقطع على حدة. ثم انتقل إلى مقارنة المباني الأسلوبية الأكثر ظهوراً في النصّ، والتي كانت متكاً الذات المبدعة في خلق التماسك النصّي عامة، فعرّج على استثمار القيم الصوتية من خلال ما يعرف بـ «الجناس»، وانتقل إلى تبيان القيم الدلالية من خلال البنى الأسلوبية من خلال الإلماح إلى علاقات الإضافة الظاهرة في النص. على أنّ في النصّ مباني أسلوبية أخرى كثيرة يمكن أن نلّم بها في دراسة أخرى، نحاول بها تأكيد سرّ خلود هذا النصّ.

كان مولد الطغرائي سنة ٤٥٣ هـ؛ أي بعد أن وطئت سنا بك خيل طغرل بك السلجوقي بغداد وأقول نجم الحكم البويهّي سنة (٤٤٧ هـ)، فكان عمره سنتين حين توفّي (طغرل بك) سنة (٤٥٥ هـ)، وتوفّي ابنه (أب رسلان) السلطنة بعد أبيه بين سنوات ٤٥٥ - ٤٦٥ هـ، ولقي حتفه زمن محمود بن محمد ملكشاه سنة ٥١٥ هـ، وبذلك يكون الطغرائي قد عاصر سنة من السلطنة السلجوقيين،

(\*) كلية الآداب - جامعة حماه - سورية.

وأربعة من خلفاء بني العباس وهم: القائم (٤٤٢ - ٤٦٧ هـ)، والمقتدي (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ)، والمستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ)، والمسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ)، وهم خلفاء ليس لهم من السلطة شيء يذكر، إذ كان الحل والعقد بيد السلاطين الذين كانوا لا يستنكفون عن إبداء مظاهر الاحترام لمنزلة الخليفة الدينية، فحسب، «ولكنهم لا يتورعون عن مخالفة أمره أو إهانتته إذا اقتضت مصلحتهم»<sup>(١)</sup>، فلم تكن سلطتهم تتجاوز مصراعي باب قصره<sup>(٢)</sup>.

نقل ابن العديم عن الحافظ أبي عبد الله بن محمد بن النجار في التاريخ المجدد لدار السلام أنه قال في سياق الترجمة للطغرائي: «... كان يتولى الطغراء للسلطان محمد بن ملكشاه... ثم ولأه الإشراف على المملكة في بعض الأوقات، ثم عزله وأمره بلزوم منزله، وكان ابنه أبو المؤيد بن محمد بن الحسن يلي الطغراء للسلطان أبي الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه، فلما قوي أمر مسعود في سنة ثلاث عشرة وخمسمئة قصده الأستاذ أبو إسماعيل ولجأ إليه، فتلقاه بالإكرام، وولاه الوزارة في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، ولقبه قوام الدين، وسار في الجيش مع مسعود إلى باب (همدان) لقتال محمود، فانهزم المعسكر المسعودي، وأخذ أبو إسماعيل الوزير أسيراً إلى حضرة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه فقتله»<sup>(٣)</sup>.

ونقل ابن العديم عن السمعاني في خبر الموضوع الذي كان فيه مقتل الطغرائي أن شافعاً الطبيب الجرجاني دخل على السلطان طغرل بن محمد بن محمد ملكشاه في «هراة» ليداويه، فقال له طغرل: أنا تحت شجرة وعليها عصافير تؤذيني، فقال: يا مولاي! تأمر الغلمان ومعهم قوس البندق يضرونها ويفرقونها. فقال: لا يجوز هذا أن أنفرها

(١) الطغرائي حياته، شعره، لاميته: ٩.

(٢) المرجع نفسه: ٩.

(٣) بغية الطلب: ٢٦٩٧ و ٢٦٩٨.

من أوكارها، وآثم بذلك، فتبسم الطبيب؛ فقال له طغرل: لم تبسم؟ فقلت: يا مولانا! تقتل الأستاذ أبا إسماعيل المنشئ مع ما فيه من الفضل، وتحترز من تنفير العصافير؟ فقال لي: يا شافع! الفضل ينبغي ألا يكون من الفضول، فإذا كان في الفاضل الفضول يهلكه. قال: ثم سمعت إسماعيل البخارزي أن الأستاذ أبا إسماعيل قتله محمود بن محمد بن ملكشاه، وأنا لا أشك فيه<sup>(٤)</sup>.

وتتجاذب زمن مقتله روايات متعددة، فمن قائل: إنه قتل سنة ٥١٣ هـ<sup>(٥)</sup> أو ٥١٤ هـ<sup>(٦)</sup>، ومن قائل: إنه قتل سنة ٥١٥ هـ<sup>(٧)</sup>، أو ٥١٨ هـ<sup>(٨)</sup>، ولكن أكثر الروايات رجحاً أن مقتله سنة (٥١٥ هـ)<sup>(٩)</sup>، وعلى هذا إجماع أغلب المصادر<sup>(١٠)</sup>.

لقد كان العصر الذي عاش فيه الطغرائي عصرًا شديد الاضطراب في المستوى السياسي، وكان مقتله ملمحاً من ملامح التلعب السياسي، ونتيجة من نتائج طمأحه وتطلعه فحيكت له خيوط مؤامرة الاتهام بالزندقة<sup>(١١)</sup>، فقتل صبراً، وانطوت بمقتله حياة شاعر طبقت «لاميته» الآفاق.

(٤) بغية الطلب ٢٧٠. ونقل ابن العديم فحوى هذا الخبر في موضع آخر (ص ٢٧٠)، وذكر أن مقتله كان في (بلخ) بقرية تدعى (طغاباذ) لا في هراة.

(٥) وفيات الأعيان ١٩٠/٢.

(٦) المصدر نفسه ١٩٠/٢.

(٧) المصدر نفسه ١٩٠/٢، نقلاً عن: السمعاني في «الأنساب».

(٨) بغية الوعاة: ٢٦٩٩.

(٩) بغية الطلب ٢٦٩٨ و ٢٦٩٩، ومعجم الأدباء: ١١٠٧/٣، ووفيات الأعيان ١٨٥/٢ - ١٩٠.

(١٠) ينظر في ذلك ما سرده الدكتور علي جواد الطاهر في كتابه: الطغرائي، حياته، شعره، لاميته: ٣٦، الحاشية ٥٢، وص: ١٣٧.

(١١) ..... لفضله، فاعتدوا قتله بهذه الحجة «، وفيات الأعيان ١٩٠/٢.

وذكر ابن الأثير في حوادث سنة (٥١٤ هـ) قول السلطان في الطغرائي: «قد ثبتت عندي فساد دينه واعتقاده». الكامل في التاريخ ٦٤٩/٨.

ولكن الاضطراب السياسي وفتن العصر الذي فتح فيه الطغرائي عينيه وعاش فيه حياةً تجاوزت ستين سنة يقابله ألق في المستوى الفكري والحضاري والأدبي، ذلك أنه كان امتداداً للعصر البويهّي الذي عرّف ازدهاراً في علوم شتّى، منها الأدب، فحسبه أن فيه من الأعلام أبا إسحاق الشيرازي، والجويني، والزمخشري، وصّر دُرّ، والأبيوردي، وابن الهبارية، وحيص بيص، والطغرائي، وغيرهم.

حظي الطغرائي بمنزلة رفيعة، فأثني عليه كلُّ مَنْ تَرَجَمَ له، لم أجد فيهم مَنْ حَدَّ عن ذلك، فوصّفه ابن كثير بـ « العميد فخر الكتاب، الليثي الشاعر»<sup>(١٢)</sup>، وقال فيه ياقوت الرومي: « كان آية عصره بصنعة الأدب وكان مُحترماً كبير الشأن جليل القدر»<sup>(١٣)</sup>. وقال ابن العديم: «... وكان حسن المعرفة باللغة والأدب، أقوم أهل عصره بقراءة الشعر وكتابة الرسائل»<sup>(١٤)</sup>.

ولم تقل منزلته في الشعر عن منزلته في السياسة؛ فقد خلّف الطغرائي ديواناً شعرياً باسمه وسَمَّه غير واحدٍ بالجودة، فقال فيه ابن خلكان: «كان غزير الفضل، لطيف الطبع، فاق أهل عصره بصنعة النظم والشعر... له ديوان شعرٌ جيّد»<sup>(١٥)</sup>، وتقاطر المترجمون له على ترداد هذه الأقوال<sup>(١٦)</sup>، ولعلّ وصفه بـ «الأستاذ» مؤشّر واضح على منزلته في السياسة والأدب معاً.

ويجمع مَنْ تَرَجَمَ له على تقدّمه في صناعاتي النظم والإنشاء<sup>(١٧)</sup>، وعلى أن واسطة العقد في ديوانه،

(١٢) البداية والنهاية ١٢/١٩٠.

(١٣) معجم الأدباء: ٣/١١٠٧.

(١٤) بغية الطلب: ٢٦٩٧ و ٢٦٩٨. ويُنظر: وفيات الأعيان

٢/١٨٥ - ١٩٠، وشذرات الذهب ٦/٦٨ (وفيّات ٥١٤هـ).

(١٥) وفيات الأعيان ٢/١٨٥ - ١٩٠.

(١٦) يُنظر في ذلك: بغية الطلب: ٢٦٩٤ و ٢٦٩٥ و ٢٦٩٦،

وشذرات الذهب ٦/٦٨.

(١٧) تُنظر المصادر المذكورة في الهوامش السابقة.

وذروة سنّامه هي قصيدته اللامية، فلا تجد واحداً منهم لم يذكر أنّها من «محاسن شعره»<sup>(١٨)</sup>، ويورد له منها بضعة أبيات. قال ياقوت: «... ومن شعر مؤيد الدين الطغرائي قصيدته التي تداولها الرواة وتناقلتها الألسن، المعروفة بلامية العجم...»<sup>(١٩)</sup> فما هي؟ وما محفّزات ولادتها، وما السرّ الكامن وراء تسميتها وخلودها؟

عرّفنا من قبل أنّ الطغرائي كان يتولّى منصب رئيس الطغراء، ويعني في مصطلح عصرنا «الديوان الذي تصدر عنه أوامر السلطان، وهو منصبٌ مهمٌّ، فعنه تصدر كلُّ الكُتُب التي يريد السلطان أن يوجهها إلى الأقاليم والنواحي التابعة لسلطته، ولهذا كان ينعت الطغرائي بـ «المنشيء» إلى جانب وصفه بـ «الشاعر»، وقيل عنه: إنه فاق أهل عصره في صنعتي النظم والنثر<sup>(٢٠)</sup>.

ويبدو أنّ تسمّنه هذا المنصب الرفيع أوغر عليه صدور منافسيه، فشرعوا يدبرون له المؤامرات، فكان من جرّاء ذلك أن عزله السلطان عن منصبه هذا سنة (٥٠٥ هـ)، فتلعب هذا الأمر بنفسه، فولدت هذه القصيدة، فجاءت في حدود ستين بيتاً على بحر الكامل، وفيما يأتي نصّها كما احتجتها ديوانه<sup>(٢١)</sup> الذي نهد إلى تحقيقه العلامة الدكتور علي جواد الطاهر، رحمه الله:

أصالة الرأي صانثني عن الخطل

وحلية الفضل زانثني لدى العطل

(١٨) وفيات الأعيان ٢/١٨٥ - ١٩٠، والبداية والنهاية

١٢/١٩٠، وشذرات الذهب ٥/٦٨.

(١٩) معجم الأدباء: ٣/١١١٠.

(٢٠) وفيات الأعيان ٢/١٨٥ - ١٩٠، وشذرات الذهب ٦/

٦٨، وغيرهما.

(٢١) ديوان الطغرائي: ٣٠١، والطغرائي: حياته، شعره،

لاميته: ٨٤ - ٩٤.

يحمونَ بالبَيْضِ وَالسُّمْرِ اللَّدَانِ بِهِمْ  
 سُودَ الْعَدَائِرِ حُمَرَ الْحَلِيِّ وَالْحَلَلِ  
 فسرُ بنا في ذِمَامِ اللَّيْلِ مُهْتَدِيًا  
 بنفحةِ الطَّيْبِ تَهْدِينًا إِلَى الْحَلَلِ  
 فَالْحَبُّ حَيْثُ الْعِدَى وَالْأَسَدُ رَابِضَةٌ  
 حولِ الْكِنَاسِ لَهَا غَابٌ مِنَ الْأَسَلِ  
 نَوْمٌ نَاشِئَةٌ بِالْجَرَعِ قَدْ سَقَيْتِ  
 نصالها بمياهِ الْغُنْجِ وَالْكَحَلِ  
 قَدْ زَادَ طَيْبَ أَحَادِيثِ الْكِرَامِ بِهَا  
 ما بِالْكَرَائِمِ مِنْ جُبْنٍ وَمِنْ بُخْلِ  
 تَبَيَّتْ نَارُ الْهَوَى مِنْهِنَّ فِي كَيْدِ  
 حَرَّى وَنَارِ الْقِرَى مِنْهُمْ عَلَى الْقَلْلِ  
 يَقْتُلْنَ أَنْصَاءَ حَبِّ لَا حَرَكَ بِهَا  
 وَيَنْحَرُونَ كِرَامَ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ  
 يُشْفَى لِدَيْغِ الْغَوَانِي فِي بُيُوتِهِمْ  
 بِنَهْلَةٍ مِنْ لَذِيذِ الْحَمْرِ وَالْعَسَلِ  
 لَعَلَّ إِمَامَةً «بِالْجَزَعِ» ثَانِيَةً  
 يَدِبُّ فِيهَا نَسِيمُ السُّرْبِ فِي عِلَلِ  
 لَا أكرهُ الطَّعْنََةَ النَّجْلَاءَ قَدْ شَفَعَتْ  
 بِرَشْقَةٍ مِنْ نِبَالِ الْأَعْيُنِ النَّجْلِ  
 وَلَا أَهَابُ صِفَاحِ الْبَيْضِ تُسْعِدُنِي  
 بِاللَّمْحِ مِنْ صَفَحَاتِ الْبَيْضِ فِي الْكِلَلِ  
 وَلَا أَخْلُ بِغَزْلَانِ أَغَازِلُهَا  
 وَلَوْ دَهْتَنِي أَسْوَدُ الْغَيْلِ بِالْغَيْلِ  
 حَبُّ السَّلَامَةِ يُنْنِي هَمَّ صَاحِبِهِ  
 عَنِ الْمَعَالِي وَيُعْرِي الْمَرْءَ بِالْكَسَلِ  
 فَإِنْ جَنَحَتْ إِلَيْهِ فَاتَّخِذْ نَفَقًا  
 فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلَمًا فِي الْجَوْ فَاعْتَزِلِ  
 وَدَعْ غَمَارَ الْعُلَى لِلْمَقْدَمِينَ عَلَى  
 رُكُوبِهَا وَاقْتَنِعْ مِنْهِنَّ بِالْبَلَلِ  
 رَضَى الذَّلِيلُ بِخَفْضِ الْعَيْشِ يَخْفِضُهُ  
 وَالْعَزُّ عِنْدَ رَسِيمِ الْأَيْتُقِ الذُّلِّ

مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع  
 والشَّمْسُ رَأَدَ الضُّحَى، كَالشَّمْسِ فِي الطَّفَلِ  
 فِيمَ الْإِقَامَةَ بِالزُّورَاءِ لَا سَكْنِي  
 بها، وَلَا نَاقَتِي فِيهَا وَلَا جَمَلِي  
 نَاءٍ عَنِ الْأَهْلِ، صِفْرُ الْكَفِّ، مَنْفَرْدُ  
 كَالسَّيْفِ عُرِّيَ مَتْنَاهُ مِنَ الْخَلَلِ  
 فَلَا صَدِيقَ إِلَيْهِ مَشْتَكِي حَزْنِي  
 وَلَا أَنْيَسَ إِلَيْهِ مِنْتَهَى جَذِي  
 طَالَ اغْتِرَابِي حَتَّى حَنَّ رَاحِلَتِي  
 وَرَحَلَهَا وَقَرَى الْعَسَّالَةَ الذُّبَلِ  
 وَضَجَّ مِنْ لَعَبِ نَضْوِي، وَعَجَّ لَمَّا،  
 يَلْقَى رِكَابِي، وَلَجَّ الرِّكْبُ فِي عَذِي  
 أُرِيدُ بَسْطَةَ كَفِّ اسْتَعِينُ بِهَا  
 عَلَى قَضَاءِ حُقُوقِ اللَّعْلَى قِبَلِي  
 وَالدهرُ يَعْكِسُ أَمَامِي وَيُقْنَعُنِي  
 مِنَ الْعَنِيمَةِ بَعْدَ الْكَدِّ بِالْقَفَلِ  
 وَذِي شَطَاطٍ كَصَدْرِ الرُّمَحِ مَعْتَقِلِ  
 لِمَثَلِهِ غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَكَلِ  
 حَلْوُ الْفُكَاهَةِ، مَرُّ الْجَدِّ قَدْ مَزَجَتْ  
 بِقَسْوَةِ الْبَأْسِ فِيهِ رِقَّةُ الْغَزَلِ  
 طَرِدْتُ سَرَحَ الْكُرَى عَنِ وَرْدِ مُقْلَتِهِ  
 وَاللَّيْلُ أَغْرَى سَوَامَ النَّوْمِ بِالْمُقَلِّ  
 وَالرِّكْبُ مِيلٌ عَلَى الْأَكْوَارِ مِنْ طَرِبِ  
 صَاحٍ وَأَخَرَ مِنْ خَمْرِ الْهَوَى تَمَلِ  
 فَقُلْتُ أَدْعُوكَ لِلْجَلَى لِنَتَصَرَّنِي  
 وَأَنْتَ تَخِذْنِي فِي الْحَادِثِ الْجَلِّ  
 تَنَامُ عَيْنِي وَعَيْنُ النُّجْمِ سَاهِرَةٌ  
 وَتَسْتَحِيلُ وَصَبَغُ اللَّيْلِ لَمْ يَحُلِ  
 فَهَلْ تُعِينُ عَلَى عَيِّ هَمَمْتُ بِهِ  
 وَالغِيُّ يَزْجُرُ أَحْيَانًا عَنِ الْفَشَلِ  
 إِنِّي أُرِيدُ طُرُوقَ الْحَيِّ مِنْ إِضْمِ  
 وَقَدْ رَمَاهُ رُمَاهُ الْحَيِّ مِنْ «نُعَلِ»

فادراً بها في نحر البِيدِ جافلةً  
معارضاتٍ مثنائى اللُجَمِ بالجُدَلِ  
إِن العُلَى حَدَّتِنِي [وهي صادقة] <sup>(٢٢)</sup>  
في ما تُحَدِّثُ أَنَّ العَزَّ في النُقَلِ  
لو أَنَّ في شرفِ المأوى بلوغَ مَنَى  
لم تبرح الشمسُ يوماً دارةَ الحَمَلِ  
أهبتُ بالحِظِّ لو ناديتُ مستمِعاً  
والحِظُّ عَنِّي بِالْجُهَّالِ في سُغَلِ  
لعلَّهُ إِنْ بَدَأَ فَضْلِي ونَقْصُهُمْ  
لعيْنِه نامَ عَنْهُمْ أو تَنَبَّهَ لي  
أَعْلَلُ النَّفْسَ بِالْأَمَالِ أَرْقُبُهَا  
ما أَضْيَقُ العَيْشَ لولا فَسْحَةَ الأَمَلِ  
لم أَرْتَضِ العَيْشَ والأَيَّامُ مُقْبِلَةً  
فكيف أَرْضَى وقد وَلَّتْ على عَجَلِ  
غالى بِنَفْسِي عِرْفَانِي بِقِيمَتِهَا  
فَصُنَّتْهَا عن رَحِيصِ القَدْرِ مَبْتَدَلِ  
وعادةُ النَّصْلِ أَنْ يُزْهَى بِجوْهِرِهِ  
وليس يَعمَلُ إِلا في يَدَيَّ بِطَلِ  
ما كُنْتُ أُوتِرُ أَنْ يَمْتَدَّ بي زَمَنِي  
حَتَّى أَرَى دَوْلَةَ الأَوْغَادِ وَالسَّفَلِ  
تَقَدَّمْتَنِي أَناسُ كانَ شَوْطُهُمْ  
وراءَ خَطْوِي لو أَمْشِي على مَهَلِ  
هَذَا جَزاءُ امرِي أَقْرانُهُ دَرَجُوا  
مَنْ قَبْلِهِ فَتَمَنَّى فُسْحَةَ الأَجَلِ  
وَإِنْ عَلانِي مَنْ دُونِي فلا عَجَبُ  
لي أَسوَةٌ بِانْحِطاطِ الشَّمْسِ عن زُحَلِ  
فاصْبِرْ لها غيرَ مَحْتالٍ ولا ضَجِرِ  
في حادِثِ الدَهرِ ما يُغْنِي عن الحِيلِ  
أعدى عَدوَّكَ أَدنى مَنْ وَثِقَتْ بِهِ  
فحاذِرِ النَّاسِ واصْحَبْهُمْ على دَحَلِ  
وَإِنَّمَا رَجُلُ الدُّنْيا وواجِدُها  
مَنْ لا يَعوِّلُ في الدُّنْيا على رَجُلِ  
وحسُنُ ظَنِّكَ بالأَيامِ مَعْجَزَةٌ  
فَظُنُّنْ شَرًّا وكنْ منها على وَجَلِ

غاضُ الوفاءِ وفاضُ الغدرِ وانفِرجتُ  
مِساْفَةُ الخُلْفِ بينَ القَوْلِ والعمَلِ  
وِشانَ صَدَقَ عِنْدَ النَّاسِ كِذْبُهُمْ  
وهَلْ يُطابِقُ مَعوِجٌ بِمَعْتَدِلِ  
إِنْ كانَ يَنْجِعُ شَيْءٌ في ثَباتِهِمْ  
على العُهُودِ فَسَبِقُ السِّيفِ لِلْعَدَلِ  
يا وارِداً سَوَّرَ عَيْشِ كُلِّهِ كَدْرُ  
أَنْفَقْتَ عُمَرَكَ في أَيامِكَ الأَوَّلِ  
فِيمَ اقْتِحامِكَ لُجَّ البَحْرِ تَرْكِبُهُ  
وأَنْتَ تَكْفِيكَ مِنْهُ مَصَّةُ الوَشَلِ  
مُلْكُ القِناعَةِ لا يُخْشَى عَلَيْهِ ولا  
يُحْتَاجُ فِيهِ إِلى الأَنْصارِ وَالخَوَلِ  
تَرْجُو البَقاءَ بدارٍ لا تُبَاتُ لها  
فهل سَمِعْتَ بِظَلٍّ غيرَ مُنْتَقِلِ  
ويا خَبيراً على الأَسْرارِ مُطَلِعاً  
أَصْمُتُ فِي الصَّمْتِ مَنجاةً مِنَ الزَّلَلِ  
قَدْ رَشَّحوكَ لِأَمْرٍ إِنْ فَطِنْتَ لَهُ  
فاربأُ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرَعى مَعَ الهَمَلِ  
أَطْلَقَ عَلَيْها اسمَ «لامية العجم» وليس بينها وبين  
العجم وعجمتهم قريب نسب، فقائلها عربي دئلي،  
وليس فيها ما يشير إلى ميل أو جنوح أو تعصب  
للعجم، فلعل مجيئها على روي اللأم، وهو روي لامية  
العرب نفسه، ووجود لفظ «الأصبهاني» في سلسلة  
نسبه لولادته ثمة، إضافة إلى ما تمثله القصيدة  
نفسها من نكوص واغتراب عن المجتمع، كل أولئك  
جعل مترجميه ودارسيه ينظرون إليها نصاً يوازي  
لامية الشنفرى . ولست أتفق مع الدكتور شوقي  
ضيف في أن سبب التسمية أن صاحبها كان يعيش  
في بلاد العجم<sup>(٢٢)</sup>؛ ذلك أنه حين انبثاقها وولادتها  
كان يعيش في بغداد.

(٢٢) تاريخ الأدب العربي : عصر الدول والإمارات (الجزيرة  
- العراق - إيران) : ٥٨٤.

وكثر تعليل تسمية القصيدة بلامية العجم بين القديم والحديث، فذكر ابن العديم أنها سميت بذلك من باب الإعجاب بها والتفضيل « على غيرها من أشعار العرب، كما سُموا قصيدة الشنفرى التي أولها:

أقيموا بني أمي صُدورَ مَطِيكُم

فإني إلى قوم سواكم لأميلُ

لامية العرب تفضيلاً لها على غيرها من أشعار العرب»<sup>(٢٣)</sup>.

وعَلَّ د. شوقي ضيف تسميتها بأنَّ قائلها كان يعيش في بلاد العجم، وجَعَلَ رَوِيَّهَا مثيل روي لامية العرب للشَّنْفَرَى<sup>(٢٤)</sup>.

وذهب الصفدي إلى أنها سميت «لامية العجم تشبيهاً بلامية العرب؛ لأنها تضاهيها في حكمها وأمثالها»<sup>(٢٥)</sup>.

وجعل طه الراوي القصيدة معارضة لقصيدة الشنفرى، وأن الطغرائي هو الذي سمّاها بذلك، وبسط في سبيل ذلك تساؤلاً: هل فكر الطغرائي عند معارضته لتلك القصيدة أن يرسم لنا في قصيدته صُورًا صادقة من أخلاق العجم ومطاوي نفسياتهم، وكيفية معاشهم في حواضرهم وأريافهم؟<sup>(٢٦)</sup>. وذهب كذلك إلى أن الطغرائي نفسه هو الذي سماها بذلك<sup>(٢٧)</sup>.

ويجاب على ما أورده الأستاذ طه الراوي - رحمه الله - أن القصيدة ليس فيها شيء مما هو مرتبط بحياة العجم لا في حواضرهم ولا أريافهم. وهذه

القصيدة ليست معارضة لقصيدة الشنفرى، فليس بينهما أي لقاء إلا في الروي، ومعلوم أنَّ المعارضة لا تقتصر على اللقاء في حرف الروي بين النصين، بل لا بد من انضمام الوزن والموضوع أيضاً. فلم يدر بخلد الطغرائي من قريبٍ أو بعيدٍ أن يُعارضَ لاميةَ العَرَبِ، ولا داعي للمقابلة بين النصين وليس من مجال إلى ذلك. بل جعل الدكتور علي جواد الطاهر أن تعقد مقارنة بين قصيدتين لا رابط بينهما، ولا يتشابهان في الوزن أو في إيقاع لام القافية»<sup>(٢٨)</sup>.

ويمعن الطاهر في تسخيفِ المقارنة بين اللاميتين بأن لامية الشنفرى لم يجمع الدارسون على أنها له، فقد ذَهَبَ عبد الرزاق البصيرُ إلى أنها لخلف الأحمر نحلها الشنفرى، وهي تسيء إلى العرب لما فيها من وصف لهم باللصوصية وقتل النساء، وأكد أن أبا علي القالي يروي عن ابن دريد أنها لخلف. يُضَافُ إلى ذلك أنَّ أبا الفرج أهمل روايتها، وأن لسان العرب لا يستشهد ببيت واحد منها<sup>(٢٩)</sup>.

ولسنا الآن في وارد تفنيد تلك الآراء والرد عليها أو موافقتها، ولكن ضرورة الإشارة إلى أن نسبة القصيدة إلى العجم كانت أول مرة على لسان ياقوت الرومي في (معجم الأدباء)، واقتدى به في ذلك ابن خلكان في وفيات الأعيان<sup>(٣٠)</sup>.

وأما أن القصيدة تصفُ العرب باللصوصية وقتل النساء، فلامية الشَّنْفَرَى تصفُ حياةَ شخص أو مجموعة من الأشخاص الذين تمردوا على قيم المجتمع، فكانت الإغارة سبيل حياتهم.

وأما جعل إهمال أبي الفرج لروايتها؛ فإنَّ أبا الفَرَجِ مشهودٌ له بِشعوبيته من جهة، وبأن كتابه

(٢٣) بغية الطلب: ٢٦٩٤.

(٢٤) عصر الدول والإمارات: ٥٨٤.

(٢٥) خليل بن أيبك: الغيث المسجم ١ / ١٣.

(٢٦) الراوي، طه: مجلة الصباح، ع ٥، ص: ٤ و ٥ [ عن: الطغرائي حياته، شعره، لاميته: ١١٤ ].

(٢٧) الطغرائي حياته، شعره، لاميته: ٤ و ٥.

(٢٨) المرجع نفسه: ١١٥.

(٢٩) الطغرائي حياته، شعره، لاميته: ١١٥، ويُنظر: أمالي القالي ١ / ١٥٦.

(٣٠) وفيات الأعيان ١ / ٢٨٤.

«الأغاني» لم يحتج شعر العرب كلّه، وإنما اختار الأصوات التي كانت تغنى آنئذ، فترجم لشعرائها، وأوردَ بعض أشعارهم، ولم يورد شعر شاعر كاملاً. وأما التعليل بأن ابن منظور لم يستشهد ببيت واحدٍ منها، فإنَّ ابنَ منظور لم يكنْ له شيءٌ من الاختيار، فقد صبَّ المصادر الخمسة التي جعلها مورد مواد معجمه، ولم يزد عليها، ولم يتخلها أصلاً.

وأما ما ذهب إليه الصفدي بجعله الطغرائي نفسه هو الذي سمى قصيدته بـ «لامية العجم» فهو مذهب لم يعهد في مسالك شعرائنا؛ فلم يرو عن أحدهم أنه وضع لقصيدته عنواناً، أو سُمها بوسم يشير إلى مضمونها.

وأما ما روي عن القالي من نقله عن ابن دريد أنها لخلف، فإنَّ عبارة القالي - وإن كانت تظللها ظلال من الشك، لكنه - فيما أرى - لم يقطع في ذلك، وأن عبارته ليست إلا من قبيل التحرُّز في الرواية، فقد قال: «حدَّثني أبو بكر بن دريد: أنَّ القَصِيدَةَ المنسوبة إلى الشَّنْفَرَى التي أوَّلها:

**أقيموا بني أُمي صدور مطيِّكم**

**فإني إلى قومٍ سواكم لأميلُ**  
له، وهي من المقدمات في الحسن والفصاحة والطول، وكان أقدر الناس على قافية». (٣١) ففي قوله: «له» نسبة واضحة إلى الشنفرى، ولم يرد ذكر لخلف في هذا الموضع.

والذي تميل إليه النفس، ويعضده ما فرشناه سابقاً من تعليقات وردود عليها، أن التسمية بـ «لامية العجم» عائدة إلى ما في تلاق بين قصيدته ولامية الشَّنْفَرَى في موضوعاتٍ كثيرةٍ من أهمها:

الاغتراب، والفخر، والحكمة، وهي المباني الفكرية الكبرى في النصين، وهذه ميادين رحبية يمكن

(٣١) الأمالي ١/ ١٥٦.

العبور من خلالها إلى عقد مقارنة بينهما، وليس على التشابه العروضي كما يذهب إليه الدكتور علي جواد الطاهر إذ ذهب إلى الازدراء بعقد مقارنة بين قصيدتين لا رابط بينهما ولا تتشابهان في الوزن أو في إيقاع لام القافية (٣٢).

وعلى غرار ما تلقف علماء اللغة لامية «العرب»، فأنزلوها منزلةً ساميةً، فَشَرَحَهَا الزَّمخَشَرِيُّ، والعكبريُّ، وغيرهما = تلقى العلماء لامية الطغرائي أيضاً، فنهذوا إلى شرحها، واستكناه ما فيها من قضايا تكون مطيئةً لإبداء مهاراتهم، وفيما يلي سرد لها وفق ما أورده الدكتور علي جواد الطاهر، منسوقة على تاريخ وفيات مؤلفيها (٣٣)، ومن أهمها:

١- شرح العكبري، عبد الله بن الحسين (ت ١١٦ هـ)، وهو أقدمها، وبينه وبين وفاة مؤلفها قرنٌ كاملٌ.

٢- شرح علي بن قاسم الطبري (ت ٦٨٣ هـ).

٣- شرح الدميري، كمال الدين، محمد بن موسى (ت ٧٣٩ هـ).

٤- شرح صلاح الدين بن خليل الصفدي (ت ٧٦٤ هـ).

٥- شرح بدر الدين الدماميني (ت ٨٢٨ هـ).

٦- شرح ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧ هـ).

٧- شرح محمد بن عمر الحضرمي (ت ٩٣٠ هـ).

٨- حاشية عبد الرحيم العباسي (ت ٩٦٣ هـ).

٩- شرح جلال الدين الحنفي (ت بعد ٩٩٦ هـ).

ولقيت من الغربيين اهتماماً (٣٤)، فكانت مناطاً ترجمتهم إلى أكثر من لغة، كاللاتينية، والفرنسية، والإنكليزية، «وأكبر الظن أنهم أعجبوا بها لإعجاب

(٣٢) الطغرائي حياته، شعره، لاميته: ١١٥.

(٣٣) المرجع نفسه: ١١٧-١٢٢.

(٣٤) المرجع نفسه: ١٣٥.

العرب بها، وأنهم نظروا إليها بالعقلية نفسها»<sup>(٣٥)</sup>.

### عين على اللامية:

على إثر عزل الطغرائي من منصبه وإفراده أفراد البعير المقير جاشت نفسه جيشان المرجل، ومادت أحنأوه ميدان الجبال، فانفجر بركان شعره عن قصيدة في ستين بيتاً ينتظمها اثنا عشر، هي: المقطع الأول: ب ١ و ب ٢ الفخر. المقطع الثاني: ب ٣ - ٧ الاغتراب العام. المقطع الثالث: ب ٩ و ١٠ مطمح وشكوى. المقطع الرابع: ب ١١ - ١٦ عودة إلى الفخر. المقطع الخامس: ب ١٧ - ٢٨ الرحلة إلى الأصول. المقطع السادس: ب ٢٩ - ٣٥ الطموح. المقطع السابع: ب ٣٦ و ٣٧ الشكوى مرة أخرى. المقطع الثامن: ب ٣٨ - ٤٠ القناعة الذاتية المقطع التاسع: ب ٤١ - ٤٢ عودة إلى الفخر. المقطع العاشر: ب ٤٣ - ٤٥ الاغتراب الجماعي. المقطع الحادي عشر: ب ٤٧ - ٥٢ الحقيقة المرة وبيت القصيد.

المقطع الثاني عشر: ب ٥٣ - ٦٠ القناعة كنز لا يفنى. ويبدو لي أن هذا التقسيم أكثر دقة من تقسيم د. علي جواد الطاهر،<sup>(٣٦)</sup> لما في تقسيمنا هذا من محاولة إصابة الحقيقة عن رسم التذبذبات النفسية التي كان النص يحتجنها، فالنص لم يسر على نسق واحد، ولم تحكمه طريقة واحدة في التعبير، فهو يتماوج تماوج النفس التي فاضت بهفكان مسبار نبضاتها وخلجاتها، فكأنه الجهاز الذي ترسم به نبضات القلوب، فيرسم كل تموجاتها، وهذا يؤكد للدارس هذا النص وارتسام لوحاتها في أبياته، ويؤكد مقولة:

(٣٥) المرجع نفسه: ١٣٦.

(٣٦) الطغرائي حياته، شعره، لاميته: ٩٥ - ١٠٢.

ما أضمر في القلب ظهر في فلتات اللسان، وأن المرء بأصغريه: قلبه ولسانه.

شرح الشاعر بحديث عن المسألة التي فجرت شظايا النص؛ فقد عُزل من منصبه، وليس هذا المنصب هو الذي يزين الشاعر، فشاعرنا يتحلّى بالرأي الأصيل، والفضل العميم، وهو صاحب مجد مؤثّل قبل المنصب وبعده، وكأنّ مَنْ سَعَوْا إلى عزله ظنوا أنهم بذلك يسلبونه خصيص ... بها المنصب، فالأمر على غير ما ظنوا، فخاب فألهم، ... وقدم راسخة في المعالي، فلا يضير الشمس أن تكون في كبد السماء أو تجنح إلى الغروب، فجوهرها لا يتغير.

فكل من الرأي الأصيل، والفضل الباذخ صفتان راسختان في شخصه لا يضيرهما تحوّل الأزمنة، فكأنني به يقول: أنا الذي كنت أعطي المنصب منزلته، وليس العكس، وكأنني به من جهة أخرى يعرّض بالذي سيخلي المنصب من بعده، فهو ليس كشاعرنا رأياً ومجداً.

١- الاغتراب: وهو ما حاول تصويره في المقطع الثاني ليدفع نفسه إلى قبول عزله من منصبه؛ ذلك أنه يشعر بالغرابة المكانية والزمانية والمجتمعية. فما مسوّغ إقامته في موطن ليس له فيه جذور ضاربة، فلا سكنه فيها، ولا من مطامح لها فيها، وليس له عزوة يحتمي بهم، فكان في ذلك كالسيف المعرّي من كل ما يزينه، والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه.

ناءً عن الأهل، صفر الكفّ، منفرداً

كالسيف عرّي متناه من الخلل  
فكل شيء يدفع به إلى الوقوع تحت وطأة كابوس  
الاغتراب:

فلا صديق إليه مشتكى حزني

ولا أنيس إليه منتهى جذبي

طال اغترابي حتى حن راحلتي

ورحلها، وقرى العسالة الذبل

وإذا كان (هيجل) يجعل الاغتراب ذا دلالة مزدوجة، فهو من جهة يعدُّه دالاً عن التخلي أو التنازل من جهة، وعلى معنى الانفصال عن النفس لعجز الفرد عن الاتحاد بالجواهر الاجتماعي<sup>(٣٧)</sup> = فإنَّ هذا المفهوم ينطبق تمام الانطباق على شاعرنا؛ فقد عُزل من منصبه إزاء واقع مذعور العلاقات<sup>(٣٨)</sup>.  
**٢- الفخر:** وقد يكون الفخر في بعض المواضع انتفاجاً تدافع به الذات عن نفسها، وهذا يظهر فيما إذا كانت الذات ليس لها من مقومات هذا الفخر شيء، كأن تفخر بالشجاعة، والأخبار تواترت عنها بالجبن، وليس الأمر في حال شاعرنا كذلك، فالفخر الذي بدأ به نصه لا يشير إلى انتفاج، فإذا تحرينا محتد الرجل وجدنا انه يعود إلى أرومة معروفة بعلو المنزلة؛ فهو عربي دثلي، وهو كذلك ذو شاعرية لا تخفى على أحد، ولا ينكرها منكر، وفي هذا تأكيد أن مجده ليس مجداً مكتسباً خوَّله إياه إسناد وظيفة الطغراء إليه.

**٣- الحكمة:** والقيم التي ينتظمها باب الحكمة في النص متعدّدة، وقد كان مبدأ ذلك في إسناد الحديث إلى «العلی» والمعالي لا تكذب.

**إن العلی حدّثني، وهي صادقة**

**فيما تحدّث أن العزّ في النُّقل**

فهذه «العلی» حدّته بأشياء من جملة أشياء كثيرة، ومن بين ما حدّثته به ضرورة الهجرة، فليس ثبات المرء بين جدران بيته شرفاً له، وليس هذا منتهى ما يؤمل، وهذا - فيما أرى - تبرير لتحوُّله وتنقله من بغداد، فلو كان ثبات الشمس هو مبعث منزلتها وقيمتها لما غادرت برجها الفلكي.

ومن هذه القيم أيضاً أن نفسك حيث تضعها، وقد قيل فيما مضى: المرء حيث يضع نفسه، ولهذا لا بدّ

(٣٧) الأخلاق والحضارة: ٨٥.

(٣٨) مقالات في الشعر الجاهلي: ٢٠٠.

من صَوْن النفس عن الهبوط إلى ذلك الذل:

**غالي بنفسي عزفاني بقيمتها**

**فصنتها عن رخيص القدر مبتذل**

ومن ذلك أيضاً أن التخوّف من ركوب رواحل الطموح يفضي إلى الكسل؛ فمن رضي بإيثار السلامة فليدفن نفسه في الحياة، لأنَّ الحياة ليست مقايضة العيش الخفيض بذلّ النفس، ولكن الحياة هي الطموح والجهود إلى تحقيقه:

**حبُّ السلامة يثني همَّ صاحبه**

**عن المعالي، ويغري المرء بالكسل**

**فإن جنحت إليه فاتخذ نفاقاً**

**أو سلماً في الجوّ، فاعتزل**

**ودع ثمار العلی للمقدمين على**

**ركوبها، واقتنع منهن بالبلبل**

لكن الدارس المدقق يستطيع الوقوف على بؤرة التلاقي بين اللاميتين، وليس وكدنا هنا عقد مقارنة بينهما، وتتمثل هذه البؤرة في الفخر المتمحور حول الأنا، وهذا الفخر عائد إلى الفقد، وهو المحرك الأساسي للنصين، فإذا كان الشنفرى قد تلاشت العلاقة بينه وبين مجتمعه، فأصيب بفقد المحيط الذي يجد فيه نفسه، فإنَّ «الطغرائي» فقد منصبه الذي كان يجد فيه نفسه أيضاً، ومن جراء هذا الفقد نهد إلى «رصيده الأول» من رأي حصيد، وفضل عميم، وأهل كانوا سنداً له، فجاء يستنهض رصيده ويستعينه، فجاء فخره «تعويضاً عن الفقد، وتعزية لنفس مصابة، وتغطية لخيبة، وتماسكاً أمام هذا الناس الذي ألفه على غير ما حلَّ به وصار إليه»<sup>(٣٩)</sup>.

فما أسرع ما انتقل إلى إظهار «الأنا» بعد المطلع التقريري الذي هو بالنسبة إليه «مسلمة» لا تحتاج إلى حجاج أو توكيد، فقال:

(٣٩) المصدر نفسه، ص: ٩٥.

## مجدي أخيراً، ومجدي أولاً شرع

### الشمس رآد الضحى مثل الشمس في الطَّفَلِ

وهو بيت صارخ بـ «الأنا»، التي تسلك سبيل دفاع الذات عن ذاتها ووجوه، و «لعلَّ شعر الفخر العربي كله لا يعدو كونه آلية من آليات الدفاع النفسي ضد عدم الثقة بالنفس، وأسلوباً من أساليب الذات في إقناع الآخر بـ «الأنا»، وربما في تشجيع الأنا وتعزيزها إزاء واقع مذعور العلاقات»<sup>(٤٠)</sup>.

فالبيت مُؤشِّر واضح على الانتماء إلى «الأنا»، وهذا شديد الارتباط بالبيت المطلع:

### أَصَالَةُ الرَّأْيِ صَانَتْنِي عَنِ الْخَطْلِ

### وحلية الفضل زاننتني لدى العطل

فهما يتعاضدان في التعويض عن الانتماء إلى الـ «نحن» واستبدال له، ومفاده أنَّ المنصب لم يكن يضيف شيئاً إلى مجده، إذ أصالة رأيه نات به عن الولوغ في الخطل، والفضل المتأصل فيه لا المكتسب، هو الذي بقي حليته الضافية بعد عزله. فالذات اللانتمية إذا أرادت أن تبرئ نفسها من أي خلل «عصابي عميق؛ فإنها تنزع إلى توكيد الأنا على الدوام... وبذلك يغدو هذا التوكيد خطة دفاعية نفسانية تتم لا شعورياً في الغالب»<sup>(٤١)</sup>.

### المستوى الأسلوبي:

يمثّل النص «بنية مركبة متماسكة»<sup>(٤٢)</sup>، و«وحدة كلية شاملة»<sup>(٤٣)</sup>.

ويبدو لنا تماسك اللامية من خلال التماسك المعنوي (Coherence) الذي يشير إلى حسن حبك

(٤٠) مقالات في الشعر الجاهلي: ٢٢٠.

(٤١) المصدر نفسه، ص: ٢٢٠.

(٤٢) عكاشة، محمود: تحليل النص ص: ٢٢١ [ عن: علم لغة النص، ص: ١١٨ و ١١٩].

(٤٣) المصدر نفسه.

المعاني وائتلافها، وهو ما وقفنا على بعض منه من خلال وقوفنا على المباني المعنوية فيه، من فخر، وحكمة، وقلق، وتشاؤم، وكلها يأخذ بعضها برقاب بعض.

أما المستوى الثاني للتماسك فهو المستوى الشكلي وعمدته العناصر اللسانية، وهو الذي يدعى «السبك» (Choesien).

والتحليل اللغوي لأي نص أدبي تحليل بالغ الأهمية؛ لأن اللغة ترجمان النفس، فيكون التحليل اللغوي مَعْبَرًا إلى فهم النص من جهة وفهم نفسية الذات المنتجة له<sup>(٤٤)</sup>.

ولعلَّ «الثنائيات الضدية» من أبرز ملامح

التماسك النصي في اللامية، ومنها:

حلو الفكاهة // مرُّ الجدِّ

قسوة البأس // رقة الغزلِ

صاحٍ // ثمل

تنصرني // تخذلني

تستحيل // لم يحلِ

البيض // السم

الذليل // العزَّ

فضلي // نقصهم

أضيق // فسحة

ولتَّ // مقبلة

غاض // فاض

القول // العمل

ولا عجب في ورود هذه الثنائيات الجدلية، فهي تعبير واضح عن نفس تملّكها التآزم، فلم تجد في معرض الدفاع عن «الأنا» من بسط الحبل لحمل ذهن المتلقي على التنقل بين السلب والإيجاب، وفي ذلك ما فيه التماشي مع الحالة النَّفْسِيَّة المتأزمة لمبدع

(٤٤) مقالات في الشعر الجاهلي: ٢٣٠ و ٢٣١.

النص، وتنشيط نفسي لقبول ما يمليه المبدع من بديهيات ومسلّمات.

ويأتي التجنيس، أو ما سمّاه «كوهين»: النظم، ومراده نظم العنصر اللغوي = ملمحًا واضحًا من كلامه سبك النص، سواء أكانَ تجنيسًا تامًا، أو محرّفًا، أو غير ذلك.

وهذا التجنيس لم يكن حليةً زائدةً جاء بها الشاعر لإثبات مقدرة لغوية، وهو - وفق كوهين - لا يقتصر على التمرّكز في الجانب الصوتي فحسب، بل يشمل الصوت والدلالة معًا.

وهو تجنيسٌ ناصِرٌ للمعنى، وهذا ما استجاده عبد القاهر الجرجاني، إذ «لا تجد تجنيسًا مقبولًا، ولا سجعًا حسنًا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه». (٤٥) لأن «ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لا يتم إلا بنصرة المعنى». (٤٦) ومن أمثلة ذلك:

صاننتي // زاننتي

مجدي // مجدي

الشمس // الشمس

راحتي // رحلها

ضجّ // عجّ

ركابي // الركب

لج // عجّ

الجلّي // الجلل

غيّ // الغيّي

رماه / رمة

صفاح // صفحات

البيض // البيض

العلّي // على

بخفض // يخفضه.

(٤٥) أسرار البلاغة: ١١٠

(٤٦) المصدر نفسه: ٨.

ومعلوم أن التجنيس أساسه التماثل الصوتي، وهذا يؤكد أن دراسة المستوى الصوتي لها أهميتها في الوقوف على دقّة حبه صوتًا ودلالةً، فمن « له أدنى بصيرة يعلم أنّ للألفاظ نغمة لذيذة كنغمة أوتار، وصوتًا منكرًا كصوت حمار، وأن لها في الفم أيضًا حلاوة كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم» (٤٧).

ودراسة التشكيلات الصوتية لا تؤتي ثمارها إلا في حال دراستها دراسة تربط بين المظهر الصوتي للدوال والدلالة الخاصة لكلّ دال، أي من غير الاتكاء على الظاهرة الصوتية للدوال المتجانسة، ولنأخذ على ذلك قول الطغرائي:

**ولا أهابُ صفاحَ البيض يسعدني**

**بالمح من صفحات البيض في الحلل**

فالصفاح في الشطر الأول تلتقي في جذرها اللغوي مع صفحات في الشطر الثاني، ولكن العنصرين مختلفان دلالة، وجاءت الإضافة لتزيد البعد الدلالي عمقًا؛ فالصفاح الأولى هي صفاح السيف، والصفحات هي حدود النساء، وهما دالتان متباعدتان، وهذا يجعلنا ندّعي أن دراسة الإمكانات الصوتية في الشعر إنما هي بحث في بنية صوتية دلالية» (٤٨)، وليس على ما قرّر في أذهان بعض الدارسين من النظر إلى الجنس على أنه تحلية خارجية للنص ليس غير. بل يشجعنا ذلك على التوافق مع الناقد حسن ناظم الذي يؤكد وجود علاقة بين مظاهر الدوال والدلالة العامة للنص (٤٩).

والبعد الجمالي للتجنيس مرده إلى أنّه «يعيد على ذهن المتلقي الصورة اللفظية نفسها مع اختلاف

(٤٧) المثل السائر ١/ ١٧١.

(٤٨) البنى الأسلوبية: ٩٧.

(٤٩) المرجع نفسه: ٩٧.

الدلالة، وهكذا تحصل الفائدة من حيث لا تتوقع، ويعيش المتلقي لحظة اندهاش واستغراب»<sup>(٥٠)</sup>. فليس «يحسُّ تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً...»<sup>(٥١)</sup>.

وَاتَّكَأَ الشَّاعِرُ فِي الرِّبْطِ بَيْنَ عُنَاصِرِ نَصْبِهِ اتِّكَاءً وَاضِحًا عَلَى عِلَاقَةِ الْإِضَافَةِ لِتَأْكِيدِ مَا يَسْرُدُهُ، وَعِلَاقَةُ الْإِضَافَةِ هَذِهِ قَائِمَةٌ عَلَى رِبْطِ اسْمٍ بِاسْمٍ آخَرَ أَوْ رِبْطِهِ بِضَمِيرٍ، وَهَذَا بَادٍ مِنْ مَطْلَعِ الْقَصِيدَةِ:

### أصالة الرأي صانتي عن الحطّ

وحلية الفضل زانتي لدى العطل

مجدي أخيراً، ومجدي أولاً شرع

والشمس رآد الضحى، كالشمس في الطفل

فيم الإقامة بالزوراء لا سكني

بها، ولا ناقتي فيها ولا جملي

فالإضافة في مطلع النص إضافة محوِّلة عن:

رأبي الأصيل فبعد أن كانت العلاقة قائمة على علاقة التبعية حوّل التابع لأنه المقصد إلى مسند إليه، إذ هو في معرض الانتفاض على من عزلوه من منصبه، فكأنه يقول لهم: أصالة رأبي، فـ(الـ) ههنا نائبة عن الضمير. وهذا التقدير ينسجم تمام الانسجام مع البيت الثاني الذي أظهر فيه (الأنا) من خلال الضمير المضاف إليه (الياء)، فكأن البيت الأول مفض إلى الثاني؛ فهما متكاملان دلالة وشكلاً، وكأن البيت الأوّل تمثّل فيه حسن الابتداء. انتقال في الحديث من الجزء إلى الكل، فأصالة الرأي، وحلية الفضل بعض من مجده التليد.

وكان التركيب الإضافي المعن في التوكيد والتخصيص يتوسل به الشاعر من خلال بنيتين

ظاهرتين، هما: إضافة اسم إلى آخر، أو إضافة الاسم إلى ضمير المتكلم الذي شاع في أغلب أبيات النص، وليس هذا الشيعوع شكلياً فحسب، ذلك أن أهمية الضمير تأتي من مستويين اثنين: أولهما مستوى الربط الشكلي بين العناصر اللسانية، وثانيهما: المستوى الدلالي، إذ يجعل من العناصر اللفظية «بنية متماسكة في المعنى لا اللفظ لدلالته على معنى في سابق عليه أو لاحق»<sup>(٥٢)</sup>.

فالنص - كما ذكرنا غير مرة - بنية لفظية ترشح عنها بنية دلالية ترتبط بحالة نفسية مأزومة نتيجة العزل من منصب كان بالنسبة إلى صاحبه ذروة الشعور بتحقيق «الأنا» الفاعلة، ولكن هذه «الأنا» لم تستسلم، بل أرادت أن تحقق وجودها النفسي خارج المنصب، فكثرت الضمائر الدالة على بُرُوزِ هذه «الأنا» الفنية التي لم تعد «ترى الأشياء إلا وفق الانفعالات النفسية»<sup>(٥٣)</sup>، فكانت في فعلتها هذه نقيض التلوّن الذي تقوم به الحرباء من تلوين جلدتها لتتأقلم والبيئة، بل عملت هذه «الأنا المنفصلة على تلوين جلد الأشياء، بل وباطنها بلونها هي»<sup>(٥٤)</sup>. لننظر مرات تردد ضمير المتكلم الناضج بتعالى «الأنا» في بيتين متتاليين:

مجدي أخيراً، ومجدي أولاً شرع

والشمس رآد الضحى، كالشمس في الطفل

فيم الإقامة بالزوراء لا سكني

بها، ولا ناقتي فيها ولا جملي

وفي قوله مؤكِّداً غرْبَتَهُ:

فلا صديق إليه مُشْتَكِي حَزَنِي

ولا أنيس إليه مُنْتَهَى جَدِّي

(٥٢) تحليل النص: ٢٢٣.

(٥٣) مقالات في الشعر الجاهلي: ٢٤٢.

(٥٤) المرجع نفسه: ٢٤٢.

(٥٠) المفصل في علوم البلاغة: ٦٣٩.

(٥١) أسرار البلاغة: ٧.

## طال اغترابي حتى حن راحتي

ورحلتها، وقرى العسالة الذُّبَلِ

وضج من لغبِ نضوي، وعجّ لِمَا

يلقى ركابي، ولجّ الركب في عذبي

ومما يؤكد الحال النفسية المأزومة جنوحه في البيت الثالث إلى الرمز الفياض بالدلالة من خلال استبدال الصفة المشبّهة «الزوراء» المشتقة من «الازورار» بدلاً من «بغداد»، وهو الاسم الأكثر شهرة وتداولاً، مع أن استعمال الاسم الأصل لا يخلُ بالوزن العروضي البنية؛ ذلك أن هذه الصفة التي غدت اسماً آخر لبغداد تحيل - بلا أدنى ريب - إلى المكان الذي تنكّر فيه الآخر لقاطنه ولفظه، وازور عنه، ويقابل ذلك الازورار من المكان ازورار آخر من «الأنا» ورفض منها وتابّب جاء من خلال التركيب الاستفهامي الذي جاء بعد بيتين سرديين بدأت بهما «الأنا» الشاعرة إظهار تأبيها إلى أن بلغت الذروة في البيت الثالث من خلال استفهام بمقطع متسارع «فيم؟»، ومحاولة إقناع لهذه «الأنا» بأنّه لا رابط يربط «الأنا» بالمكان الذي تنكّر لها.

وبعد؛ فليس للبحث أن يدعي بأنّه قد قال كلّ شيء يُمكن أن يقال في هذه «اللامية»، ففيه من القضايا ما يستطيع الدارس المتعمّق أن يسوّد في تحليلها وتفحصها صفحات وصفحات ما يؤكّد سرّ خلود هذه «اللامية»، وما فيها من عمق التجربة وحِدّة العاطفة اللّتين عبّر عنهما صاحبها باقتدار.

فهذه العواطف والحالات النفسية... من القوة بحيث يحسّ أنفسهم فيها ملايين الناس في مشارق الأرض ومغاربها... إنها تجربة خاصة، ولكن صاحبها منّ القوة والعنف بحيث أكسب هذه التجربة الشمول

والدوام، ودلّ على استيعابه مجتمعه وانعكاسه في نفسه»<sup>(٥٥)</sup>.

## المصادر والمراجع

- الأخلاق والحضارة: عادل العوا، مطبوعات جامعة دمشق، ١٤٠٨ - ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م.
- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود شاكر، دار المدني، جدة، ١٩٩١ م.
- الأمالي: أبو علي إسماعيل القالي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠ م.
- البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، بيروت، مكتبة المعارف، ط ٥، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م.
- بغيّة الطلّب في تاريخ حلب: عمر بن محمد ابن العديم (ت ٦٦٠هـ)، تحقيق د. سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨-١٩٨٩ م.
- بغيّة الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤ م.
- البنى الأسلوبية: حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط ١، ٢٠٠٢ م.
- تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (الجزيرة - العراق - إيران): د. شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠ م.
- ديوان الطغرائي، تحقيق د. علي جواد الطاهر ود. يحيى الجبوري، بغداد، دار الحرية للطباعة، وزارة الإعلام، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦ م.
- (٥٥) الطغرائي حياته، شعره، لاميته: ١١٧.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب : عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ)، حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عليه محمود الأرنؤوط، أشرف على تحقيقه وخرَّج أحاديثه عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- الطغرائي حياته، شعره، لاميته، دراسة وتحليل: د. علي جواد الطاهر، مكتبة النهضة، بغداد، مطبعة التضامن، ١٩٦٣م.
- علم لغة النص نحو آفاق جديدة، ترجمة سعيد حسن بحيري، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- الغيث المسجم في شرح لامية العجم : خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٧٥م.
- الكامل في التاريخ: علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري، المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، تحقيق د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- معجم الأدباء : ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.
- المفصل في علوم البلاغة: د. عيسى العاكوب، جامعة حلب، ٢٠٠٨م.
- مقالات في الشعر الجاهلي: يوسف اليوسف، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٥م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : أحمد بن محمد بن خلكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.